الإفريقانية أو " البعد الإفريقي " في شعر محمد الفيتوري تفكيك و تأصيل

Africaan "or" African Dimension "in the Poetry of Mohammed Fitori Dismantling and Rooting

د. موسى كراد
المركز الجامعي _ ميلة / الجزائر
adab.kerrad@yahoo.com

ملخص البحث

تحاول هذه الورقة البحثية الكشف عن البعد الإفريقي أو «الإفريقانية» في شعر محمد الفيتوري إيقاعاً وموضوعا، ذلك أن انتماء الفيتوري إلى السودان وتشبّعه بثقافة إفريقيا، جعلاه ينحاز لقضاياها ويكون وفيّاً لإنسانها ومناخاتها من خلال تعبيره عن مآسي الإنسان الإفريقي، الذي عانى من الاستعباد والظلم والميز العنصري. ونقصد بالتفكيك تفكيك الموروث الاستعماري، والأبنية الفكرية الثقافية القائمة على فكرة المركز القوي المتمدن وتسويغ مقالب السيطرة والهيمنة والتحكم في آخر؛ الذي لطالما وصف بالهامش والمتخلف و الدوني... أما التأصيل فيكون للثقافة المحلية الوطنية (الإفريقية)، قصد الحفاظ على مقومات الهوية الوطنية.

الكلمات المفتاحية: الإفريقانية؛ البعد الإفريقي؛ محمد الفيتوري؛ تفكيك؛ تأصيل.

Abstract

This paper attempts to outline the African or Afrikaans dimension in the poetry of Muhammad Alfeturi both thematically and artistically. The fact that he is from Sudan and that he is imbued with the culture of Africa makes him advocate its causes and remain faithful to its people and its climate through the expression of the miseries of the African man, who suffered from slavery, injustice and racial distinctions. We intend to dismantle the colonial heritage, cultural intellectual buildings based on the idea of a strong and civilized centre and rationalizations of dominance, domination and control of another, which has always been described by the marginalized, the backward and the degenerate ... while rooting is in

favour for national (African) local culture, in order to preserve national identity.

Keywords: Afrikaans; African dimension; Mohamed Alfeturi; dismantling; rooting;

1. إفريقيا القضية الفيتورية:

لم تتفجر قرائح الشعراء حبا وإيمانا ودفاعا عن إفريقيا، كما تفتحت لدى الشاعر السوداني محمد الفيتوري، شاعر إفريقيا، فقد شب الشاعر الفيتوري وعروق دمه الزنجية تغلي في داخله، لا لسواد بشرته، ولكن وعى في وقت مبكر ما يعنيه الانتماء إلى الروح والدم الإفريقي، فلقد أسكن الشاعر (إفريقيا) في شغاف قلبه، وأوقد قناديل تاريخه بتاريخها، وخلع عليها مأساته الخاصة، فكان يبصر من خلالها خلاصه المنشود، ورشده البعيد ... إنّ جهنم الضياع والاستلاب التي سكنها الإنسان الأسود بسبب وبفعل التيار الكولونيالي من خلال النخاسة والزنوجة، سعى الشاعر بكل ما أوتي من قوة لعرضها بصورة شعرية فريدة لم يسبقه إليها أحد من الشعراء .

يعتبر الفيتوري محامي إفريقيا بحق، فهو لم يُسبق لهذا الأدب الذي أقبل على مائدته، إنها روية ميتافيزيقية، حيث أدمج العنصر الديني الثوري مع الصورة النقية الزنجية الإفريقية. لقد عالج الفيتوري القضايا الإفريقية من خلال دواوينه: أغاني إفريقيا، اذكريني يا إفريقيا، عاشق من إفريقيا، أحزان إفريقيا.

كما سعى إلى كشف الحقيقة السوداء ليلتحم ذلك بثقافته الخاصة، هذه الثقافة عندما تتعمق تأخذ بعدا متناسقا على المستوى الاجتماعي، وزهوا على المستوى العنصري، ومماثلة على المستوى العرقي، ومنبعا للحرية لا ينضب على المستوى النضالي.

وما فتئ الفيتوري يحمل عبئ الإنسان الأسود، ويحترق ألما لما يصيبه من ذل واحتراق على يد الأبيض، ويتمنى أن تطلع نجم الحرية في سماء هذا الإنسان المظلوم

أتى دور إفريقيا.. حسب الفيتوري، فالقضية الإفريقية إذن هي قضية فيتورية بامتياز، حيث الدفاع المشروع عن الجنس الأسود المظلوم ضد الأبيض الظالم المحتل، والكل يبتدئ وينتهي عند عتبة العنف المتمثل في الاستعمار وغيره، الذي يعتبر أساس رد الفعل تجاه الحقيقة المخيفة التي يوجد عليها الإفريقي، وهو كذلك النهاية عندما يجد التبرير الوحيد في الثورة:

فتغنى بأفريقيا، ودافع عن كرامتها، وحضّ وحثّ على المواجهة والمجابهة مع المستعمر ومع ما خلفّه بعد إخراجه بالقوة والرصاص، فكان أدبه وشعره لإفريقيا وبإفريقيا من أروع ما فاض به قلمه، وخطته يمينه.

فإفريقيا – هذا التجلّي– تغدو في شعر الفيتوري هي الحبيبة والأم والأرض والناس، وهي الوطن والمعتقد، وهي أيضاً الصوت واللون والرائحة والجمال، هي الأمل والألم، والمبتدأ والمنتهى، وهي بالتالي الموضوع الطاغي على شعر هذا الشاعر.

يتضح جلياً، مما سبق، أن إفريقيا هي الموضوع الأثير في شعر الفيتوري، وقد صاغ من انتمائه إليها قضية إنسانيّة كبرى، إذ تولّد من هذا الموضوع المركزي مواضيع فرعية، كما الشجرة التي يتفرع من جذعها غصون وغصون، أما جذرها فثابت في الأرض ويشكل البؤرة النفسية ونواتها.

2. الفيتوري والأدب ما بعد الكولونيالي:

مصطلح ما بعد الكولونيالية (postcoloniales) أو ما بعد الاستعمار هو ككل المصطلحات المابعدية لا يعني بالضرورة أنه مناهض لما قبله ومقاوم له، فما بعد الكولونيالية لا تعني مخاصمة الكولونيالية، وإنما تعني الوعي بالثقافات الأخرى التي وجدت في المستعمرات، وبالهويات والاتجاهات والكتابات التي أريد لها أن تندثر وتزول، لتعود ثانية إلى الظهور بصفتها الأخرى، أي على أساس أنها (كتابات الرد) حاملة معها هويتها وشخصيتها وتقيباتها في خطاب المركز: فالهامش يستعيد نفسه وحضوره في داخل المركز الذي سرعان ما انشغل بثقافات الأطراف، ليجد نفسه مضطرا إلى الانتباه إليها[1]. ومن تعريــفات الخطاب ما بعد الاستعماري أو الكولونيــالي " دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استعمارها، أي منذ وطئت أقدام

المستعمر هذه البلاد فتدرس كيفية استجابتها لإرث المستعمر وهل تكيفت معه أو قاومته وهل تغلبت عليه والفترة التاريخية التي تشملها الدراسة هي بداية القرن السادس عشر"[2]

يعتبر الفيتوري سليل فانون F. FANON الذي يعد واحداً من أبرز من كتبوا عن مناهضة الآخر الكولونيالي (المُستعمِر) في القرن العشرين، جنباً إلى جنب ألبرت ميمي ALBERT MIMI وإدوارد سعيد E. W. SAID وهومي بابا HOMI BHABHA وغيرهم، بحيث ألهمت كتاباته ومواقفه الكثير من حركات التحرّر في العالم خلال القرن الفائت، وهو الأمر الذي دفع الكثيرين إلى وصفه بصفات عدّة؛ من بينها «شاعر العالم»، و«مسيح الثقافات المقهورة»، وغير ذلك، كما قال عنه صبحي حديدي. وليس فانون بعيداً كثيراً عن الفيتوري الذي وصفه عبده وازن بأنه «شاعر التخوم».، ويَكْمُن وجه الشبه بين الفيتوري وفانون في إدراكهما الحادّ وتعريتهما خطورة الدور الذي مارسه الرجل الأبيض الكولونيالي طويلاً ضد إفريقيا السوداء.

كما يظهر ذلك جليا في كتابه:" المعذبون في الأرض"(1961م)، حيث يحلل فانون طبيعة الاستعمار الكولونيالي، ويبين طابعه الذاتي والبراغماتي، معتبرا أن الاستعمار مصدر للعنف والإرهاب؛ مما يولد مقاومة مضادة من قبل الشعوب المستضعفة أو البلدان المستعمرة. ومن ثم، ينتقد (فرانز فانون) الأنظمة الاستعمارية الكولونيالية الغربية. ومن ثم، يثور على المنظومة الغربية التي ينتمي إليها، معتبرا إياها رمزا للتسلط الثقافي، ومنظومة مركزية مبنية على قوة العلم والثقافة والتكنولوجيا، وذلك بغية الهيمنة، والسيطرة، وإخضاع الشرق ماديا ومعنويا .وخير من يمثل الرد الفعلي المباشر على التغريب الاستعماري والتسلط الثقافي المركزي الغربي الحركات الثقافية المضادة، حيث يعتبر أدب محمد الفيتوري (شعره ومسرحياته) حركة ثقافية مضادة..

فالأدب ما بعد الكولونيالي – في أغلبه – قراءة تفكيكية للنصوص الكولونيالية بغية كشف إيديولوجياته الاستعمارية المقصودة أو غير المقصودة، ولفضح حجم التعارض بين الدعاوي الحضارية التي يتبجّح بها الخطاب الأوروبي ومبطّناته الاستيطانية.

ولعلّ من أشهر النصوص الأدبية ما بعد الكولونيالية نذكر على سبيل المثال لا الحصر " أشياء تتداعى (Thinfs fall Apart) لتشنوا آتشبي (Chinua Achebe) و"موسم الهجرة إلى الشمال "للطيب صالح، ومحمد الفيتوري في أشعاره ومسرحياته.

إذن هناك علاقة بين محمد الفيتوري والأدب ما بعد الكولونيالي، فأشعاره حول إفريقيا – والتي سبقت النظرية – كانت بمثابة دراسة استكشافية، اعتمدت طاقات الفن الشعري والمسرحي، لترسم صورة مركبة للآثار اللاواعية التي تركتها حركة الاستعمار الأوروبي، على نفسيات الشعوب المستعمرة والمستعمرة على السواء، لاسيما نفسيات مثقفيها وعقولهم، سواء خلال فترة الاستعمار أو بعدها. أما نظرية "ما بعد الاستعمار"، التي تبلورت تماً ما في عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين – فقد نهضت على أكتاف مجموعة من المثقفين، ودرست النظرية ما درسته أشعار الفيتوري من قبل، أي الآثار التي تركتها حركة الاستعمار على المستعَمر والمستعمِر.

3. البعد الإفريقي في أشعار الفيتوري تفكيك وتأصيل:

قد مثّل الفيتوري بقصائده جزء مهماً من حياة الشعب الإفريقي، وهو تصوير حي لأحاسيس الشعب الإفريقي والتعبير عن آرائهم وتطلعاتهم نحو المستقبل؛ أشعار الفيتوري مدرسة للدفاع عن الحرية وسيادة الإنسان وتحرر كل البلاد من رجس الاستعمار والصهيونية والفساد والعدوان. فهو في الواقع كان ابن إفريقيا، وكانت روحه مليئة بحب الأمة وعطر تاريخها المجيد وتطلع إلي النهضة وتمثل الماضي.

يشكل البعد الإفريقي في نصوص الفيتوري الشعرية فضاء ومشهدا أساسيا، ومحنة الإنسان الإفريقي وصراعه ضد العبودية والاستعمار وتوقه إلى التحرر تشكل أيضا موضوعا أساسيا في قصائده، واستطاع الفيتوري أن يثبت وجوده من خلال إيمانه بقارته السوداء ومبادئ سار عليها وتوظيفه للرموز بطريقة قصصية ساعيا أن يبرر للون الأسود منطقيته، فمن خلال البحث عن قصائده التي أحيانا تكون أقرب للنثر من الشعر لكن في طياتها تحمل رؤية وفكر شاعر عاش وعاصر الكثير من الأحداث والوقائع وأن يكون شاعرا يطبق ما يؤمن به.

ونقصد بالتفكيك تفكيك الموروث الاستعماري، والأبنية الفكرية الثقافية القائمة على فكرة المركز القوي المتمدن وتسويغ مقالب السيطرة والهيمنة والتحكم في آخر؛ الذي لطالما وصف بالهامش والمتخلف والدوني... أما التأصيل فيكون للثقافة المحلية الوطنية (الإفريقية)، قصد الحفاظ على مقومات الهوية الوطنية.

وقد استعان الفيتوري في تفكيك البعد الكولونيالي وتأصيل البعد الإفريقي على عدة تقنيات وآليات سنحاول التعرف عليها في هذه الورقة البحثية:

I. تقنيات وآليات تفكيك البعد الكولونيالي:

1 كشف وفضح الأبنية الفكرية الثقافية:

عمد الفيتوري في شعره إلى كشف مساوئ هذا الكولونيالي الذي سيطر على الإفريقي واغتصب خيراته وأنفس ما يملك من حرية وتحرر وعيش كريم في أوطانهم.

ففي شعر الفيتوري عن إفريقيا _ ومن خلال نبرة غنائية حزينة _ لم يقم الشاعر إلا بوصف الحقيقة المقلقة للشعوب الإفريقية. وصياغة هذه الأوصاف، على مستوى التعبير، اتخذت عدة أشكال. فمن جهة هي محايدة وساكنة، إلى الحد الذي تعطي فيه لبراهينها مظهرا باردا، وهي من جهة أخرى، رافضة متآمرة، ولكن عندما يرفع التحدي، فهي ليست سوى شعار هجائي.

وقد سعى الشاعر إلى الدفاع عن إفريقيا وقضاياها العادلة، المتعطشة للحرية والانعتاق من العبودية والجهل والتخلف، لكن ذلك لا يكون إلا بتفكيك كل القنابل الفكرية والإيديولوجية والانتروبولوجية التي زرعها المستعمر المغتصب الأبيض، عبر معادلات تهميشية تغريبية محقرة للإنسان الإفريقي كل هذه الأوصاف، يمكن تلخيصها بما يلي[3]:

إن الأبيض المسحور بالوجه الغرائبي للأرض الإفريقية، يعثر على عذريته عبر «الوحشية» الطبيعية للقارة، وكذلك عبر بدائيتها الطاهرة.

إنَّ الأسوْدَ، كمنبع للسذاجة، هو موضع استغلال، على جميع المستويات من لدن الأبيض وبالضبط من جراء سذاجته نفسها.

يحكي الفيتوري عن وقائع قضية الأبيض قبل صياغة نص الاتهام للوصول إلى نهاية المعادلة التالية: الدفاع عن الأسود، هذا الدفاع مع أنه صادر عن رؤية واحدة، فهو بعيد عن أن يكون مبهما رغم المظهر المزدوج للقضية، لأن الأمر يتعلق بقضية بيضاء منظور إليها بسواد، وبأخرى سوداء منظور إليها ببياض. إن المدافع هو نفسه في كلتا الحالتين، إنه الشاعر.

إنَّ الأبيض يستغل الثروة الطبيعية لإفريقيا لحسابه الخاص ويجعل من جانبه الروحي (الموروث الثقافي والديني) «غداءه الدنيوي» الخاص. (التأثير الذي تخضع له الفنون التشكيلية المعاصرة من لدن الفنون الإفريقية والاختلاس الفني الذي تمتلئ به متاحف أوروبا).

يُشير الفيتوري إلى الأحكام المسبقة للأبيض التي ما يفتأ يعزوها للأسود. (كالكسل وغياب مفهوم الزمن، وفقدان الحس أمام التقدم، والرغبة في الوجود الأجنبي كضرورة حتمية، والقبول، بدون أي شرط للاستعباد).

وسنرى من خلال النماذج الشعرية الآتية حجم المعاناة والظلم والاحتقار الذي تعرض له الإفريقي بسبب سواد لون بشرته وضعفه وكثرة خيراته:

يوضح الفيتوري أنّ سبب هذه العبودية والذل الذي عاشه أبناء إفريقيا هو ذلك الضعف الذي جعلهم يعيشون في سجنه قابعين تحت رحمته، يقول:

ولأن الضعف سجن، ولأن الخوف سجن.. ولأن الماضي المظلم سجن. بقيت أفريقيا مستعبدة.... تنقب السجن إلى سجن جديد !....[4]

ثُم يتساءل (الفيتوري) في نفسه ومخاطبا المستعمر الغاصب في حيرة مفادها أنّ الأسود حرّ، وأنّ اللون لا يستتبع العبودية، فليس لأنه أسود هو عبد، وإنما لأن هناك أبيض في قارة بعيدة رغب أن يستعبده ويشحن به السفن، يكدّسه ويكبلّه كي يخدمه، يقول في قصيدة (إلى وجه أبيض):

ألأن وجهي أسود
ولئن وجهك أبيض سميتني عبدا
ووطئت إنسانيتي

وحقَّرت روحانيتي
فصنعت لي قيداً ؟[5]

الأسئلة التي حرَّقت روحه وهي تستدعي تلك الأجساد في السُّفن، الأصفاد والجباه المتعرِّقة والأقدام الدامية في مسيرتها الأليمة كي تبني حضارة شعوب أخرى بعرقها ودمها وكرامتها، كي تعمل في المزارع والمناجم ثم تُغتصب وتُقتل، فقط لكونها ولدت بوجوه سوداء !

لقد أراد الشاعر فضح الواقع الاستعمار الكولونيالي اللاإنساني وتعريته وإظهار الجانب القبيح للوجه الأبيض :

وَقَالَ شَيْخٌ مُقْعَدٌ
شَقَّقَتْ جَبْهَتَه فَأْسَ الزَّمَنْ
كُنْتُ صَغِيرًا
عِنْدَمَا أَبْصَرَتْ عَيْنَايَ وَجْهَ الأبْيَضِ الْمُحْتَقِنْ
وَلَمْ أَزَلْ أَذْكُرُ لِي إِخْوَةً
مَشُوا عَبِيدًا تَحْتَ ثِقَلِ الْقُيُودِ
وَالسَّيِّدُ الأبْيَضُ مِنْ خَلْفهمْ
وَسَوْطُه مُلتَصِقٌ بِالْجُلُودِ "[6]

ويقول في قصيدة (قطرة ضوء) مبرزا حجم التضحيات والإذلال الذي تعرض له أبناء إفريقيا من أجل أن ينعم غيرهم، من أجل أن يسعد غيرهم:

" يَا كَمْ تَكَحَّلْنَا بِلَيْلٍ ...
وَتَدَثَّرْنَا بِهَمٍّ !!
وَكَمْ مَشَيْنَا فَوْقَ شَوْكِ الْيَأْسِ
مِنْ نَجْمٍ لِنَجْمٍ
وَكَمْ حَرَثْنَا حَقْلَنَا
بِفَأْسِنَا الأعْمَى الأصَمّ
وَكَمْ حَصَدْنَاهُ .. حَصَدْنَا

مَا زَرَعْنَا .. ثُمَّ لَمْ !!
بَلَى .. جَنَيْنَا مِلْءَ أَيْدِينَا
جِرَاحَاتٍ وَدَم" ! [7]

نلاحظ في هذه المقطوعة خروج الاستفهام هنا عن معنى الاستخبار إلى التعبير عن الكثرة، كثرة السهر، لأن من ناء ليله بأعباء يومه، وكان دثاره هما، لا بد أن يجافيه النوم وكثرة الخيبة من بعد نصب الاستغلال، فكم زرع هذا الأفريقي حقوله، وكم حصد غلالها لكن ليس له، بل للأجنبي المحتل الغاصب، وما كان من نصيبه إلا الجراحات والدم. ويقول الشاعر في قصيدة (العائدون من الحرب) مصورا معاناة أبناء إفريقيا:

" لَقَدْ عُدْنَا .. أَجَلْ عُدْنَا مِنَ الْحَرْبِ مَيَامِينَا
عَلَى أَعْنَاقِنَا قَدْ عَبَّأُوا النَّصْرَ رَيَاحِينَا
وَمِنْ أفواهنا قَدْ جَسَّمُوا الْمَجْدَ ..أَرَانِينَا
لَقَدْ عُدْنَا .. وَلَكِنْ لا كَمَا شَاءَتْ أمَانِينَا
ألا لَيْتَنَا مِتْنَا بَعِيدًا عَنْ أَرَاضِينَا !..
لَقَدْ عُدْنَا مِنَ الْحَرْبِ إِلَى الْحَقْلِ إِلَى الْمَصْنَعِ
لِكَيْ نَحْرُثَ ، لِكَيْ نَبْذُرَ ، كَيْ نَحْصُدَ كَيْ نَجْمَعْ
لِكَيْ نَبْنِي لِلْغَيْرِ ..لِكَيْ نَطْهُو وَلا نَشْبَعْ
لِكَيْ نَحْلُمَ بِالْفَجْرِ الَّذِي مِنْ يَدِنَا يَسْطُعْ
لِكَيْ نَصْنَعَ حَرْبًا ضَخْمَة أُخْرَى .. لِكَيْ نَصْنَعْ " [8].

نلاحظ في هذا المقطع توظيف كم كبير من الأفعال، والتي تحمل في طياتها ما كان ينتظر هذا العائد من الحرب الذي عليه أن يتجه إلى الحقل، أو المصنع، ليحرث الأرض ويبذرها ، ويحصدها، لكي يجمع ويبني، ويطهو، ولكن المفارقة أن كل ما يجني من أعماله (للغير)، وأنّه سيبقى حالما رغم أعماله، فالأفـعال عدنا، عبأوا، متنا) تعبر عن الاستغلال البشع لهذا المحارب، تتبعها مجموعة أخرى من الأفعال تصف الحقيقة المأساوية التي وصل إليها الشاعر، وهي استمرار المعاناة عبر

الاستغلال البشع (نحرث، نبذر، نحصد، نجمع، نبني ، نطهو، لا نشبع، حلم، يسطع، نصنع، نصنع) الحضور القوي لهذه الأفعال يعكس الذل والخضوع والخنوع الكبير المتوالى والمتتالى الذي تعرض لها الشعب الأفريقي على مدار السنين.

حيث تستعمل هذه الأفعال في التعبير عن مآسي الأفريقـيين وهموم الرقيق الذين يعبئون في السفن التي تذهب بهم إلى المساومة في سوق النخاسة، أين تتساوى الزنجيات بالسلع التجارية :

وُسُفُن مُعَبَّأَةٌ بِالْجَوَارِي الْحِسَانْ
وَبِالْمِسْكِ وَالْعَاجِ وَالزَّعْفَرَانْ
هَدَايَا بِلا مَهْرَجَانْ
تُسَيِّرُهَا الرِّيحُ فِي كُلِّ آنْ
لأبْيَضِ هَذَا الزَّمَان
سَيِّدِ كُلِّ زَمَانْ"[9].

ويمكننا القول إنّ الأبيض من أجل سلب هذا التراث، نهج ثلاثة أساليب مختلفة. على مستوى الاكتشاف **استعمل طغيانه، وبالنسبة للتملك فقد مارس الاغتصاب، وأخيرا وعلى مستوى النفسي، فقد تصرف بأسلوب احتقاري**، يقول الشاعر في ذلك:

وتطلعت إلى عينيكِ، والشعر سلاحي
عاري الجبهة كالفجر، مغطى بجراحي
أتلقى عنكِ أعداءكِ، أعداء كفاحي
الذين اغتصبوا عرضك مرة
وحملوا عارك زهرة
عبثت أقدامهم في حرماتك
رقصوا فوق رفاتك
شوهوا تاريخك العالي، المهيب الكبرياء
أغرقوه بالدماء....
سرقوا أثمن ما يحمله صدرك يا أم بلادي

سرقوا تاجك، ثم اضطهدوك
سرقوا سيفك، ثم اغتصبوك
سرقوا مجدك، ثم احتقروك
إنما لم يقتلوك
فلقد كنتِ الملايين التي ليست تموت
الملايين التي يولد في أحشائها
اليوم.. والغد..
والتي قوتها ليست تحد
والتي تولد في كل صباح، من جديد
في ملايين المهود[10]

لم تكن مجرد قصائد وحسب، بل وثيقة غاضبة تدين أولئك الذين جعلوا من القارة السوداء على مرّ الأيام، وكرّ العصور، غابة شاسعة يتساوى فيها الإنسان بالحيوان! محمد الفيتوري، هو الشاعر الذي غنّى إفريقيا كأفضل ما يكون الغناء لمعشوقته السوداء.

2 الدعوة إلى التمرد والثورة والعنف القانوني:

لقد كان الاستعمار الغاشم هو السبب في تكثيف شعور الاحتقار والذل والسيطرة على الإفريقي في نفسيته وحرّضه على التمرد والثورة على كل ما هو قامع ومهيمن وسائد. فإذا هو ينتفضُ طلباً للحرية والانعتاق من نير العبودية،

ومنذ الصفحة الأولى لكتاب فانون " معذبو الأرض " يعلن بشكل حاسم أنّ العنف هو السبيل الأوحد لفك الاستعمار، ويمكن أن ندلل على ذلك بهذه العبارة القاطعة " إنّ محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائما "[11].

يقول موجها خطابه لأخيه في الشرق بل إلى كل العالم قاطبة، يدعوه بأن يقف معه في محنته، لأنه سيثور معلنا عن رفضه وغضبه وتمرده:

يَا أَخِي فِي الشَّرْقِ فِي كُلِّ سَكَنٍ
يَاَ أَخِي فِي الأَرْضِ فِي كُلِّ وَطَنٍ

أَنَا أَدْعُوكَ
فَهَلْ تَعْرِفُنِي
يَا أَخًا أَعْرِفُه رَغْمَ الْمِحَنْ "[12]

نداء الأخ للأخ، والشعب للشعب، نداء أفريقيا لكل مظلوم في الأرض، وتزداد النغمة صعودا لتلاءم ثورة القارة وانتفاضتها :

" إِنَّنِي مَزَّقْتُ أَكْفَانَ الْبِلَى
إِنَّنِي هَدَمْتُ جُدْرَانَ الْوَهَنْ[13]

وقوله:

"إِنْ نَكُنْ سِرْنَا عَلَى الشَّوْكِ سِنِينَا
وَلَقِينَا مِنْ أَذَاهُ مَا لَقِينَا
إِنْ نَكُنْ بِتْنَا عُرَاةً جَائِعِينَا
أَوْ نَكُنْ عِشْنَا حُفَاةً بَائِسِينَا "[14]

وصولا إلى قوله:

"وَجَعَلْنَا حَجَرَ الْقَصْرِ رُؤُوسًا
وَنَقَشْنَاهُ جُفُونَا وَعُيُونَا [15]

هذا الاستقرار في النبرة يلاءم نغمة الحزن التي تطغى على السطور الشعرية التي تعتصر ألما وتقطر مأساة لتعود إلى الغلو والتصاعد من جديد حين العودة إلى الثورة وروح التغيير.

" فَلَقَدْ ثُرْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا
وَمَحَوْنَا وَصْمَةَ الذُّلِ فِينَا [16]

ثم تزداد تصاعدا وتصعيدا، حين يظهر ملمح التحدي؛ تحدي هذا المستعمِر الغاشم الذي لا يستحق إلا رمادا وسوادا يملأ حياته ودنياه، :

لَسْتُمْ بِبَنِينَا إِنْ لَمْ يُذِر الرِّيحُ رَمَادَ الْجَلادِ
لَسْتُمْ بِبَنِينَا إِنْ لَمْ يُجْلَ الْغَاصِبُ عَنْهَا مَدْحُورَا
إِنْ لَمْ تَخْلَعْ أَكْفَانَ الظُّلْمَة..

إِنْ لَمْ تَتَفَجَّرْ نُورَا.
إِنْ لَمْ يَرْتَفِعِ الْعَلَمُ الأسْوَد
فَوْقَ رُبَاهَا مَنْصُورَا
إِنْ لَمْ يُحْنِ التَّارِيخُ لَكُمْ جَبْهَتَهُ فَرْحَانَ فَخُورَا "..[17]

ثم يلتمس الشاعر من هذا الأفريقي المضطهد أن يستمع لندائه:

"فَاسْتَمِعْ لِي ... اسْتَمِعْ لِي [18]

ثم يحول أنظاره إلى الجماهير التي لمست شعلة الوعي في كل مكان، ويشجعه للإقتداء بها وبكفاحها وتسجيل تاريخها بالقوة :

" فَانْظُرِ الإصْرَارَ فِي أَعْيُنِهَا
وَصَبَاحُ الْبَعْثِ يَجْتَاحُ الْجِبَاهَا "[19]

والثورة الأولى في رأيه ثورة على النفس الخاشعة تحت سياط الجلادين لمحو وصمة الذل، ثم تأتي ثورة البناء الهادف :

" قُمْ تَحَرَّرْ مِنْ تَوَابِيتِ الأسَى
لَسْتَ أُعْجُوبَتها ..أَوْ مُومْيَاهَا
انْطَلِقْ فَوْقَ ضُحَاهَا أَوْ مَسَاهَا
يَا أَخي قَدْ أَصْبَحَ الشَّعْبُ إِلَهَا "[20]

فبعد أن يخاطبها ويأمرها بالاستماع إليه، يوجه نداءات ثورية صادقة خالصة لإفريقيا، يقول الشاعر في قصيدة (البعث الأفريقي)

أَفْرِيقْيَا اسْتَيْقِظِي ..
اسْتَيْقِظِي مِنْ حُلُمِكِ الأسْوَد
قَدْ طَالَمَا نِمْتِ .. أَلَمْ تَسْأَمِي ؟
أَلَمْ تَمَلِّي قَدَمَ السَّيِدِ ؟ "[21]

ويقول أيضا:

لِتَنْتَفِضْ جُثَّةُ تَارِيخِنَا
وَلْيَنْتَصِبْ تِمْثَالُ أَحْقَادِنَا [22]

ويقول أيضا:

فَلْتَنْحَنِ الشَّمْسُ لِهَامَاتِنَا

وَلْتَخْشَعِ الأَرْضُ لأَصْوَاتِنَا "[23]

ويقول في مقطع آخر من القصيدة ذاتها :

أَفْرِيقْيَا

أَفْرِيْقَيا اسْتَيْقِظِي :

اسَتيْقِظِي مِنْ نَفْسِكِ الْقَابِعَة

أَكُلُّ مَا عِنْدَكِ أَنْ تُصْبِحِي مزرعة

لِلأَرْجُلِ الزَّارِعَة

أَكُلُّ مَا عِنْدَكِ أَنْ تَلْعَقِي أَحْذِيَةَ الْمُسْتَعْمِرِ اللامِعَة

أَكُلُّ مَا عِنْدَكِ أَنْ تَرْقُدِي

خَامِلَةً .. خَائِرَةً .. خَاضِعَة

أَكُلُّ مَا عْنَدِك أَنْ تُصَدِّرِي قَوَافِلَ الرَّقِيقِ

يَاَ ضائِعَة " ![24]

الشاعر يستنكر الضعف الأفريقي، ويستغرب الخضوع للأجنبي المستغل للأرض والشعب، وهو موقف يستدعي الولاء لهذا الخائن ورفض للعبودية ورفض للاستعباد، وكل هذا نابع من حب الشاعر لأرضه و لشعبه.

استهل الشاعر خطابه بندائه لأفريقيا وأهل أفريقيا ، دونما أداة نداء اختصارا لان المنادى معلوم مشهور، وقريب حسيا ومعنويا، ثم اتبع الشاعر نداءه بأمر قائلا– استيقظي– ناهيا إياهم عن الاستمرار في الحلم والأماني تاركين العمل والثورة، وقد استخدم هذا الأسلوب للفت انتباه الشعوب الأفريقية وتنبيههم لأوضاعهم السوداء، ضلالهم وضياعهم.

هكذا تتتابع النداءات مؤكدة لذات الغرض وذات الإفادة، مضمنة في كل مرة نصيحة تبين حال الأفريقيين الذين وصفهم بأنهم يعملون بلا هوادة وثمار حبات عرقهم عائدة لمستعمرهم.

" أفْرِيقْيَا ..
أَفْرِيقْيَا النَّائِيَة
أَفْرِيقْيَا النَّائِيَة
يَا وَطِنِي .. يَا اَرْضَ أَجْدَادِيَه
إِنِّي أُنَادِيكِ أُنَادِي دَمِي فِيكِ
أُنَادِي أُمَّتِي الْعَارِيَة
إِنِّي أُنَادِي الأوْجُه الْبَالِيَة
وَالأعْيُنَ الزَّاكِدَة ..الْكَابِيَه "[25]

يحمل النداء في هذا المقطع من القصيدة إلحاحا واضحا، ما يوحي بحب الشاعر لأهله وبني جلدته وأرضه التي هو منها وهي منه، ورغبته الواضحة والقوية في صحوتهم وإرشادهم إلى دروب الصواب، وتخويفا من سوء العاقبة إن طل الحال على ما هو عليها، فكانت الأساليب الندائية تحمل زجرا واضحا وحثا مغلفا بنصح وإرشاد.

ويتوجه أحيانا بالخطاب إلى الأبيض المستغل، بنبرة تحد واضح، واستهزاء مبين، حينما يعلو صوت الشعب في (هذا الشعب)ضد هذا المستغل الذي دنس أرضه وأورثه ضعفه،

" فَاخْلَعْ تَاجَكَ الآنَا
كَفَاكَ مِنَّا ضَرَعَاتٍ وَإِذْعَانَا
وَحَسْبُنَا مِنْكَ تَخْرِيبًا وَطُغْيَانَا "[26]

ويمكننا القول إن الفيتوري شاعر ثوري، شاعرٌ ثائر ضدّ الأبيض، ليس مطلق أبيض، إنما الأبيض المُستبد، الجلَّاد، المُستعمِر، المُستغِل، تاجر الرقيق، مُذل ومهين الإنسان. والحقدُ الذي يأتي ذكره في شعره، ليس حقداً لعقد نفسية من أسود تجاه أبيض (عقدة لون)، إنما الحقد نابع من هذا الحقّ الذي أعطاه السيِّد لنفسه ليسترق بذريعته إنساناً آخر، كان آمناً في حقله، فلتنتفض جثة تاريخنا ولينتصب تمثال أحقادنا، يقول:

آن لهذا الأسود.. المنزوي
المتواري عن عيون السنا

آن له أن يتحدَّى الورى[27]

فالقضية الإفريقية إذن هي قضيته، حيث الدفاع المشروع عن الجنس الأسود ضد الأبيض المحتل. والكل يبتدئ وينتهي عند عتبة العنف، الذي يعتبر أساس رد الفعل تجاه الحقيقة المخيفة التي يوجد عليها الإفريقي، وهو كذلك النهاية عندما يجد التبرير الوحيد في الثورة:

كانت جموع السحب../ كان الدجى يرخي جناحيه على القرية !/ وكانت الأوجه ذات الأسى

ذات العيون الاستوائية/ قد انزوت خلف سراديبها

تحلم بالنار، وبالثورة/ تحلم بالثأر لتاريخها/ من العدو الأبيض الجثه.[28]

رؤية الفيتوري الشعرية (الإفريقية) هامت بالمضامين وشغفت بالقضية الإنسانية، فانصبَّت في توصيفها من زواياها المُتعدِّدة، لم تعبأ هذه الرؤية بالشكل والأسلوب؛ لأنه يرى أن الأصالة ليست وفقاً للشكل والأسلوب، وإنما الأصالة أصالة الفكر والعاطفة. وعاطفته ملتهبة وانفعاله مضطرب وغضبه عارم، لذا ينادي إفريقيا مناداة متوترة تشي بالانفعال والغضب

إني أناديكِ

أنادي دمي فيكِ

أنادي أمتي العارية

إني أنادي الأوجه البالية

والأعين الرَّاكدة.. الكابية

فويلكِ إن لم تحضني صرختي

زاحفةً من ظلمة الهاويَّة

عاصفةً بالأبيضِ المعتدي

يحتفي الشاعر بالأسود، الأسود الرمز، القارة، الثائر، الإنسان الذي ستنحني الشمس لهامته وتخشع الأرض لصوته؛ لأنه سيملؤها فرحاً كما امتلأت قروناً بأحزانه،

وتزخر مجموعاته الشعرية بهذا الأسود، أو ما يرمز إليه من مترادفات أو معانٍ كالدجى، الظلام، الليل، الزنوج، الأبنوس، الأمس وسواها من مفردات.

يحتفي بالإنسان الزنجي الذي هو أحد الملايين التي لا تموت والتي تولد في كل صباح من جديد، ويحتفي بالمناضل والثائر ببن بلا، مانديلا ولومومبا :

ابقَ مكانك
لن تصدأ في تربة روحي
فتوهَّج في نار جروحي
اصبغ أعلام الثورة يا سيف بلادي

لازم الشاعر الحنين والشوق الدائم إلى الأرض المقدّسة التي لا يملك شيئاً سوى الإيمان بشعبها وتاريخها هذه الأرض البعيدة، إفريقيا الأرض الموعودة، الأرض الحلم:

وسِّد الآن رأسك فوق التراب المقدَّس
واركع طويلاً
لدى حافة النهر
اركع
ثمَّة من سكنتْ روحه شجر النيل
أو دخلت في الدُّجى الأبنوسي
أو خبأت ذاتها في نقوش التضاريس
ثمَّة من لامست شفتاه القرابين
قبلك
مملكة الزُرق الوثنية
قبلك
عاصفة اللحظات البطيئة
قبلك
طقس الوجوه المدلاة في مهرجان المشانق
قبلك.

بقيت إفريقيا تواجه مصيرها في غياب من يرشدها، ومن يسمع صوتها، بل إن الصوت المسموع هو صوت الإنسان المتجبر وحسب:

ليس على الأرض سوى الإنسان
الطاغية.... العبد الأكبر
ما ثم إله يتجبر[29]
زمني يا أخت هواي حزين
صوت نبي.... وصراخ سجين[30]

ويمثل الليل بالنسبة للشاعر وإفريقيا ملاذا وملجأً يكشفون فيه آلامهم، ويرزخون فيه تحت سياط الجلاد والعمل الشاق يقول:

الليل
ليل العبيد المتوجين... العرايا
القابعين تماثيل
فوق أرض الخطايا
الآثمين.... النبيين[31]

ففي هذا المشهد يتجلى واقع أبناء إفريقيا، فهم البناة الذين يبحثون عن خلاص للأمة السمراء وسط واقع تستبيح الخطايا أرضه وتسكن في أعماقه، ويقابل هذه الصورة حكم التأثير الصادر بحقهم، فهم الآثمون بنظر رموز السلطة، لأنهم يحملون و يحلمون على عاتقهم النهوض بمشاريع التحرر والانعتاق.

لقد انبرى الشاعر للدفاع عن أمته السمراء، الأمة التي عانت الويلات وقبعت سنوات طوالا تحت نير المستعمر الغاشم، تئن تحت وطئته، وتطأطئ خشوعا لكبريائه وجبروته، فظهرت في معجمه الشعري لفظة كثر تداولها على نطاق واسع ألا وهي العبودية، حيث تعددت أفاقها ودلالاتها لكن أصلها واحد وهو استعلاء الرجل الأبيض على خادمه العبد الرجل الأسود، فقد عاش الإفريقي وأبناء إفريقيا عقدة اللون لدى الإفريقي.

يدعو الشاعر في قصيدة البعث الإفريقي إلى التمرد على الغاصب الأبيض للأرض السوداء، فدعوته للحرية والثورة على العبودية والمستعمر ينادي إفريقيا فيقول:

إفريقيا
إفريقيا استيقظي.....
استيقظي من حلمك الأسود[32]

فالحلم الأسود هنا هو حلم العبودية الجاثم على امتداد إفريقيا، انه الاغتراب والاستلاب والتبعية للأخر، ثم ينتقل الشاعر في وصفه للواقع الإفريقي المزري من واقع مستعبد سليب مستباح، في أيدي الأبيض المتجبر فهو قدر وقضاء أبناء إفريقيا، فهو الذي يفرض سيطرته وسطوته وينفذ حكمه على العبد الأسود بالحديد والنار.

ضلت إفريقيا تلثم أقدام العبودية بخشوع وذل، إلا أن هذا الواقع يغدو مرفوضا في دعوته التحررية، فهي ترفض القديم المتعلق بهذه الحقيقة والحقبة المؤلمة، يقول:

لم أعد مقبرة تحكي البلى
لم أعد ساقية تبكي الدمن
لم أعد عبد قيودي
لم أعد عبد ماض هرم
عبد وثن[33].

ورغم الذل والعراء والجوع، غلا أن أبناء إفريقيا تحدوا السقوط والإذلال والهيمنة، وما عاد بوسعهم قبول ذلك يقول:

جبهة العبد.... ونعل السيد
وأنين الأسود المضطهد
تلك مأساة قرون غبرت
لم أعد أقبلها.. لم أعد[34].

ويصور الفيتوري ثورة إفريقيا على الظلم والعبودية وتمردها على هذا الأبيض الذي دنّس أرضها وقداستها بالرمز (الطوفان)[35]. حيث يتلون الطوفان بلون القارة السمراء، فهو طوفان أسود يمثل تعبير عن المصير المشترك الجمعي، يقول:

ها هو ذا الطوفان الأسود...
يعدو عبر السد الصخري...
ها هي ذا إفريقيا الكبرى...
تتألق في ضوء الفجر[36].

ويقول أيضا مخاطبا إفريقيا ساعيا إلى غزوها من جديد، لكن أي غزو تهبه ويهبها الحياة والحرية والسلام:

يا بلاد الزنوج الحفاة العراة
سآتيك يوما.... كغاز جديد
يريد الغنى، ويريد الحياة[37].

فإذا كانت إفريقيا تهب المال والحياة للغزاة والمغتصبين، فلماذا لا تهب الحياة لأبنائها. فهي غزوة الحياة والنصر وطلوع فجر الأمة يقول مبشرا بالنصر:

الفجر يدك جدار الظلمة/ فاسمع ألحان النصر/ ها هي ذي الظلمة تداعى/ تساقط.. تهوي في ذعر ها هو ذا شعبي ينهض من إغماءته/ عاري الصدر[38].

II. تقنيات وآليات تأصيل البعد الإفريقي:

تمحورت هذه التقنيات في حقل دلالي شامل وجامع، وذلك بالتغني بإفريقيا وإثبات الذات الإفريقية، بإبراز جمالياتها وعراقتها وأصلها والافتخار بلونها وعرقها والدفاع عنها وعن كرامتها وشرفها.... :

تهدف نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي إلى فضح الخطاب الاستعماري الغربي، وتفكيك مقولاته المركزية التي تعبر عن الغطرسة والهيمنة والاصطفاء اللوني والعرقي والطبقي، وذلك باستعمال منهجية التشتيت والفضح والتعرية[39]. لذا، فقد وجد الفيتوري في كتابات كتاب نظرية الخطاب ما بعد الاستعماري آليات منهجية لإعلان لغة الاختلاف، وتقويض المسلمات الغربية، والطعن في مقولاتهم البيضاء ذات الطابع الحلمي الأسطوري.

حاول الفيتوري من خلال شعره إلى استعادة الهوية، بحيث شكّلت بنية تعكس الوعي الزنجي المحموم/ المهموم بقضية الذات والانتماء الثقافي/ الجغرافي/ الهوياتي،

ومن ثم فإنها بنية عبارة عن قناة لتمرير وعي أسود يرفض الكائن ويطمح إلى أن يتجاوزه ويعيد من خلال الممكن الشعري/ الثقافي الهوية المفقودة. وبهذا المعنى يسعى الزنجي إلى تدمير الاستسلام التراجيدي بتحطيم الكليات القديمة من أجل خلق كليات جديدة.

سعى الفيتوري في ديوانه (أغاني إفريقيا) إلى نصرة الجنس الأسود، وتحرير الأفريقي وتأصيل شخصيته وذلته، ونفض الوهن والضعف عنه، وتخليصه من عذاباته وغربته من خلال الدعوة إلى الكفاح الإنساني، يقول في ذلك:

قُلْهَا لا تَجْبُنْ ..لا تَجْبُنْ
قُلْها فِي وَجْه الْبَشَرِيَّة ..
أَنَا زِنْجِي ..
وَأَبِي زِنْجِيُّ الْجَدِّ..
وَأُمِّي زِنْجِيَّة ..
أَنَا أَسْوَدْ ..
أَسْوَدٌ لَكِنِّي حُرٌّ أَمْتَلِكُ الْحُرِّيَّة
أَرْضِي أَفْرِيقِيَه ..
عَاشَتْ أَرْضِي ..
عَاشَتْ أَفْرِيقِيَّه "!"[40]

ففي أسلوب تراوح بين الأمر والنهي، الشاعر يحث الإنسان الأفريقي على إثبات الذات الزنجية في عالم لا يعترف بحقها في الحياة، ويشجعه محذرا إياه من الجبن ومطبات التردد. " ليجعل من عرقه الأسود مدعاة للفخر والتباهي "[41].

واستهلال القصيدة بالقاف ولّد موسيقى قوية وعنيفة، تذكي الجرأة للصراخ في وجه الطغاة من البشرية، تلاه تكرار للهمزة في كل سطر من أسطر مقطع القصيدة، (أنا، أبي، أمي، أسود، أمتلك، أرضي، أفريقيه) والهمزة بحضورها القوي وبكونها صوتا انـفجاريا، تظهر انفعال الشاعر وتبين مدى شعوره بالكبت والغيظ الناجمين عن احتقار الأجنبي الأبيض، للأفريقي الأسود، وتكشف عن حقيقة مؤلمة، أن مأساة الأفريقي،

حرمانه، استغلاله واستعباده عائد إلى لونه، فتنفجر هذه الانفعالات الكامنة في صدره بنخوة رافضة لهذا الظلم العنصري:

"أَنَا أَسْوَدْ ..
أَسْوَدٌ لَكِنَّنِي حُرٌّ أَمْتَلِكُ الْحُرِّيَة[42]

يستطيع القارئ لأبيات الفيتوري الشعرية أن يلمح مدى احتفائه بالزنوجة التي هي قدر الإنسان الأفريقي، حيث يؤكد في أغلب نصوصه الشعرية الرافضة للمستعمر قبول فكرة الإنسان الزنجي لحقيقة كونه أسود وحرا في الآن نفسه. ويواصل الشاعر زهوه على محتله معلنا حبه لأرضه، وانتمائه لها وشذاه بها رغم ما لاقاه فيها .

"أَرْضِي أَفْرِيقِيَّه
عَاشَتْ أَرْضِي
عَاشَتْ أَفْرِيقِيَّه "[43]

ويقول أيضا:

أَرْضِي وَالأَبْيَضُ دَنَّسَها
دَنَّسَها الْمُحْتَلُّ الْعَادِي ..
فَلأَمْضِ شَهِيدًا ..
وَلْيَمْضُوا مِثْلِي شُهَدَاءَ أَوْلادِي
فَوَرَاءَ الْمَوْتِ .. وَرَاءَ الأَرْضِ
تُدَوِّي صَرْخَةُ أَجْدَادِي..
لَسْتُمْ بِبَنِينَا إِذَا لَمْ تَذْرُ الرِّيحُ رَمَادَ الْجَلادِ" [44].

تكرار هذا الصوت عبر عن مفارقة معنوية، عبر عنها الشاعر بالتضاد في قوة الفعل وقوة رد الفعل، الأولى تدنيس العادي، وهما مفردتان انصهرت فيهما كل أشكال الظلم التاريخي والعنصري التي قاساها الأفريقي، والثانية الشهادة ومضي الأولاد فيها على درب الأجداد، فالحل كامن في الثورة، وعلى قدر الضغط يأتي الانفجار، كما صور الصوت أيضا بعد بث الحماسة في أرواح الأجيال وعيدا شديدا لهذا المعتدي

(رماد الجلاد) فمتى قويت الأمم وصقلت الهمم استحال هذا الجبار الطاغي رمادا تذروه الريح.

إنّ الشاعر مع التمييز بين أسود وأبيض، لكنه لا يتسامح أبدا مع التمييز العنصري. إنه يفهم من خلال «التنقية» تلك التصفية الدقيقة للدم حتى لا يبقى في الكائن إلا الإنساني. هذه التصفية لا يمكنها – في كل الأحوال – عزل مميزات هذا الكائن، ذلك بأن الفيتوري – إذا صح القول – يرى أنه على كل طائر أن يغرد انطلاقا من شجرة نسبه. ولهذا نجده يتغنى الشاعر بإفريقيا معربا لها عن هواه وعشقه لها، بكل ما تحمله من تناقضات وهوية وذات يقول مفتخرا عاشقا لإفريقيا:

صناعتي الكلام
سيفي قلمي
وكل ثروتي شعور ونغم
ولست واحدا من أنبياء العصر
لكن لي هوى يكبر كلما أكبر
لم أمنحه مرة لملك متوج[45].
.....
كنت عذابي..... أنت إفريقيا
وكنت غربتي التي أعيشها
وشئت أن أعيشها[46]

تبين هذه المقطوعة العلاقة الوجدانية الحميمية بين الشاعر ومحبوبته إفريقيا، فالفيتوري ذلك العاشق المتيم بحبيبته إفريقيا يغني لها في عيد حريتها.

وينادي الفيتوري للحفاظ على الروح الإفريقية بالعودة إلى الحياة الصحية حيث «عرق الجبال» لا يبقي روائح الأرض الإفريقية. إنه يذهب إلى أن هذه الرائحة التي هي خصبة وثورة، (خصبة لأنها ممثلة بالماء علامة على كل حياة، وثورة لأنها ممثلة بالكونغو أثناء حربه التحريرية) هي المنفذ الوحيد الذي من خلال تتسرب أنفاس مستقبل إفريقي أفضل:

صوتك هذا ؟/ إنني أكاد أن ألمسه/ أكاد أن أنشق في غصونه/ رائحة الأرض، وعرق الجبال/ أكاد أسمع في خفوقه/ تدفق «الكنغو» العظيم بالمياه[47]

لقد حاول الفيتوري تدمير كل «القلاع» البيضاء التي بنيت من أجل تأمين تطواف الروح الإفريقية عبر العبودية والمسخ. وتقويض السجون التي سيتم تلقائيا عند تحقيق الثورة التي ستكون هي الأخرى عفوية. لكن الماضي في مرحلته الميتة، التي اتسمت بالدموع والأسى، سيصبح فرحة ولا شيء آخر:

أصبح الصبح فلا السجن، ولا السجان باق/ وإذا الفجر جناحان يرقان عليك/ وإذا الماضي الذي كحل هاتيك المآقي/ والذي شد على الدرب وثاقا لوثاق/ والذي ذوب ألحان الأسى في شفتيك/ والذي غطى على تاريخنا في كل وادي/ فرحة نابعة من كل قلب يا بلادي[48].

وفي الأخير يدعو بالسلامة لأفريقيا جمعاء ، آملا أن يعود هذا الفردوس الضائع إلى أبنائه:

"فاسلمي يا أرض أفريقيا لنا
اسلمي يا أرض أفريقيا لنا "[49]

تنطوي إذن شعرية الفيتوري على تضافر عدد كبير من الثيمات الإفريقية؛ فقصد إلى تجسيد هموم القارة السوداء شعرياً، والدفاع عن قضاياها التاريخية جمالياً؛ الأمر الذي يجسّد مأساة الإنسان الأسود في مسيرته الكبرى لمقاومة المُستعمِر الأبيض الذي احتلّ إفريقيا، كأنه يستدعي فانون وألبرت ميمي وجدل المُستعمِر والمُستعمَر.

فقد رفض كتاب ومثقفو نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي – والذي يعد محمد الفيتوري واحدا منهم– الاندماج في الحضارة الغربية، وانتقدوا سياسة الإقصاء والتهميش والهيمنة المركزية، ورفضوا كذلك الاستلاب والتدجين، فدعوا في المقابل إلى ثقافة وطنية أصيلة، ونادوا بالهوية القومية الجامعة[50]. فالفيتوري وغيره سخروا كل ما لديهم من آليات ثقافية وعلمية لمواجهة التغريب، فتشبثوا بهويتهم السوداء، ودافعوا عن كينونتهم الزنجية الأفريقية.

خاتمة:

ومن هنا، جاءت كتابات الفيتوري الأفريقية في الحقيقة لتواجه التغريب، والاسترقاق، والاستعمار، والميز العنصري من جهة، والتغني بالحرية، والهوية، والثورة، والإنسان من جهة أخرى.

فهو أحد الشعراء الذين عايش المدّ الثوري التحرري في إفريقيا، حملت أشعاره الصرخة الإفريقية العارمة والرافضة للمستعمر ولاستعباده، وقد واكب هذا المدّ الشعبي، بل سبقه اتجاه ثقافي تبلور في حركة (الزنوجة) في الثلاثينيات، التي أقرّت بقبول وتناسي الإنسان الأسود لحقيقة كونه أسود صاحب قيم ثقافية وفنية تخصَّه وتختلف عن غيره،

إنّ قصائد الشاعر الفيتوري ارتبطت بقوة بالروح الأفريقية المعذبة، والإنسان الأسود الزنجي المضطهد بسبب لونه وموقعه الاجتماعي على حدّ سواء، فقد تغنى منشدا لإفريقيا، وجعل من إفريقيته رمزا للتحرر والمجد الزنجي الضائع، يقول:

" **لا تحفروا لي قبرا سأرقد في كل شبر من الأرض أرقد كالماء في جسد النيل أرقد كالشمس فوق حقول بلادي مثلي أنا ليس يسكن قبرا.**"

ولكن مما يجرح النفس، وتدمي العيون، أن صيحات الفيتوري لم تصل إلى عمق الجماهير الإفريقية، وخصوصا الإفريقية السوداء كما وصلت أصوات (سنغور) و(ديوب)، على الرغم أن القضية متحدة وإن تنوعت الوسائل، ولعل القطيعة اللغوية هي ما يفسر لنا هذا الغياب.

هوامش:

[1] العيد جلولي، الأبعاد المفاهيمية لنظرية ما بعد الكولونيالية، مجلة تموز العدد 15 ربيع 2012، ص: 14.

[2] دوغالس روبنسون، الترجمة والإمبراطورية نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، ترجمة: ثائر علي ديب، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع سورية، دمشق ط2، 2009، ص: 32.

[3] الزنوجة في شعر محمد الفيتوري، الموقع الالكتروني: http://www.nizwa.com/

[4] محمد الفيتوري، الديوان، المجلد الأول، دار العودة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1972م، ص 76 من قصيدة "حدث في أرضي"

[5] المصدر نفسه، م1 ، ص: 84.

[6] المصدر نفسه، ص: 68-69.

[7] المصدر نفسه، ص: 174-175.

[8] المصدر نفسه،ص: 153- 154. .

[9] المصدر نفسه، ص: 58.

[10] المصدر نفسه، ص: 411 ، من قصيدة "عصر الميلاد ".

[11] فرانز فانون، معذبو الأرض، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص: 01.

[12] محمد الفيتوري ،الديوان ص: 72.

[13] المصدر نفسه، الصفحة نفسها

[14] المصدر نفسه، ص: 73-74.

[15] المصدر نفسه، ص: 74.

[16] المصدر نفسه، ص: 75.

[17] المصدر نفسه، ص: 82 .

[18] المصدر نفسه، ص: 73.

[19] المصدر نفسه، ص: 75.

[20] المصدر نفسه، ص: 76.

[21] المصدر نفسه، ص: 61

[22] المصدر نفسه، ص: 65.

[23] المصدر نفسه، ص: 66.

[24] المصدر نفسه، ص: 64.

[25] المصدر نفسه، ص: 64-65.

[26] المصدر نفسه، ص: 160.

[27] المصدر نفسه، ص: 31 من " قصيدة ثورة قارة ".

[28] المصدر نفسه، ص: 29-30 ، من قصيدة " البعث الإفريقي "؟

[29] المصدر نفسه، ص: 366.

[30] المصدر نفسه، ص: 371.

[31] المصدر نفسه، ص: 114.

[32] المصدر نفسه، م1، ص: 61

[33] المصدر نفسه، م1، ص: 73.

[34] المصدر نفسه، م1، ص: 81.

[35] رغم أنّ دلالة هذا الرمز تأخذ المنحى السلبي؛ فهو يعبر عن المصيبة العظيمة التي تحل بالأمة وما يرافقها من أحداث جسام.

[36] محمد الفيتوري، الديوان، م1، ص: 81.

[37] المصدر نفسه، ص: 92.

[38] المصدر نفسه، م1، ص: 46 من قصيدة " أنا زنجي "

[39] جميل حمداوي، نظرية ما بعد الاستعمار، شبكة الالوكة، ص: 03، http://www.alukah.net/Language_Literature/0/39097/

[40] محمد الفيتوري، الديوان، ص: 80-81.

[41] نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، الجزائر، ص:399.

[42] محمد الفيتوري، الديوان ، ص: 80.

[43] المصدر نفسه، ص: 81.

[44] المصدر نفسه، ص: 81.

[45] المصدر نفسه، ص: 333.

[46] المصدر نفسه، ص: 434.

[47] المصدر نفسه، م1، ص: 405، من قصيدة " صوت إفريقيا ".

[48] المصدر نفسه، م1، ص: 489 من قصيدة " الحصاد الإفريقي".

[49] المصدر نفسه، ص: 79.

[50] جميل حمداوي، نظرية ما بعد الاستعمار، ص: 3.